

وسائل تكيف النباتات مع البيئة الصحراوية

أحمد الدسوقي - باحث مساعد

مقدمة

انطلاقاً من مسئوليتنا الوطنية في الحفاظ على الموارد الطبيعية وحماية البيئة، نقدم بين يديكم هذه السلسلة من المقالات عن وسائل دفاع النباتات عن ذاتها في البيئة الصحراوية؛ وعندما نتحدث عن وسائل دفاع النباتات، فإننا نقصد كيفية تكيفها مع الظروف المحيطة، سواءً كانت تلك الظروف المحيطة تمثل تهديداً أو خطراً من قبل الإنسان أو الحيوان، أو حتى تكيفها مع الظروف البيئية القاسية التي تتسم بها البيئة الصحراوية من نقص في المياه والأمطار، أو العواصف الرملية وغيرها من الظواهر الطبيعية.

وهنا سوف نتطرق إلى أسلوب حياة العرب في الصحراء، وكيفية استفادتهم من النباتات، واستخدامهم الطريقة نفسها التي تغلب بها النباتات على قسوة تلك البيئة الصحراوية. كما سوف نقدم حكمة - نستخرجها من بين السطور- لأنفسنا ولجيل الشباب الصاعد للمحافظة على ثرواتنا الطبيعية التي وهبها الله إياها.

النباتات الشوكية أو العضاء: منافع وفوائد

العِضاءُ من الشجر: كل شجر له شوكٌ، وهو اسمٌ يطلق على ما عَظُم من شجر الشوك وطال شوكُه واشتد؛ وقيل العِضاءُ هو الشجر ذو الشوك مما جَلَّ - أي عَظُم - أو دَقَّ.

الأشواك وأهميتها للنبات

من مظاهر تكيف النباتات في الصحراء تحوُّر بعض أجزائها إلى أشواكٍ حادة؛ هذه الأشواك قد تكون جزءاً من الساق أو الأوراق أو حتي الأزهار والثمار. ويرجع تحور بعض أجزاء النباتات إلى أشواك لتقليل سطح النبات المعرض للعوامل الجوية القاسية كالرياح والجفاف، كما تُعدُّ هذه الأشواك أدوات تحذيرية تدفع بها النباتات الأذى عن نفسها من المعتدين كالإنسان والحيوان. وفي حين أن معظم هذه النباتات الشوكية غذاء جيد لبعض الحيوانات الرعوية مثل الأغنام والإبل والظباء وغيرها، كان على هذه النباتات أن تتخذ أساليب عدة حتى لا تُفنى تحت تأثير الحيوانات الرعوية؛ كأن تكون نباتات شوكية مفترشة الأرض حتى يصعب على الحيوانات أن تلتهمها بالكلية ويتبقى جزء من النبات في الأرض يستطيع من خلاله النبات إكمال دورة حياته، والمثال على ذلك نبات الشكاعة " وهو نبات مُعَمَّر - أي تدوم خضرته - يفترش الأرض، لا أصل له بمعنى أنه لا يطول، ولا ساق له أو جرع، وهو من النباتات الشوكية المرعية.

كلاليب السَّعدان

وإذا تحدثنا عن النباتات الأرضية الشوكية، فجدير بنا أن نذكر نبات السَّعدان. ونبات السَّعدان هو نبات حولي، يمتد حبلاً على الأرض، له ثمار قد تحورت إلي أشواك صلبة، دائرية الشكل، تفتersh الأرض كأنها الكلابيب، وتسمى هذه الثمرة باسم الحَسَك، وكل ثمرة مدحرجة حَشِينة، شاكَة، تسمى الحَسَك. وقد ورد ذكر السَّعدان في أحاديث الرسول، حيث وصفه صلى الله عليه وسلم بأنه كلاليب تخدش بعض الناس عند

مرورهم على الصراط يوم القيامة. وقديماً كان العرب يستخدمون حَسَك السَّعْدَانِ في حروبهم، حيث كانوا يرمونه في مدارج الخيل فيعيق حركتها، كما كانوا يضعونه على أسوار حدائقهم ومنازلهم لمنع تسلل الغرباء إليها. ولكن في زماننا الحديث لم يسلم السَّعْدَانِ من سيارات الدفع الرباعي وغير الرباعي، فبعد أن كان يُستخدم في إعاقة حركة الخيل في الحروب، صار هو تحت عجلات السيارات تدهسه ولا يبالي به أحد.

وحرِيّ بنا – عندما نتحدث عن الثمار الشوكية أو الحَسَك – أن نذكر أنها وسيلة انتقال للنبات من مكان إلى آخر عندما تلتصق بأشواكها في أصواف وأوبار الأغنام والإبل، كما هو الحال في نبات السَّعْدَانِ والنَّفْلِ والحَسَكِ وغيرها من النباتات، حتى النمل تنقل ثمرة الحَسَكِ إلى بيوتها. فهذه النباتات رُغم أنها نباتات حولية – أي تكتمل دورة حياتها في أشهر قليلة من السنة في موسم الأمطار - إلا أنها بهذه الطريقة توسع من رقعة انتشارها حيثما ذهبت الحيوانات وانتقلت من مكان لآخر.

السِّدْر الضَّالِّ

ومن النباتات الشوكية في الصحراء العربية نبات السِّدْر؛ وقد فَرَّقَ العرب السدر إلي نوعين، الضَّالِّ والعُبْرِي. أما السِّدْر الضال فهو السِّدْرُ البَرِّيُّ النَّابِتُ في السُّفُوح وفي الجَبَلِ بعيداً عن الماء، وهو من الشجر الشاكي، وشوكته حَجْنَاءٌ حَدِيدَةٌ، لا ينتفع بثمره، لذا فهو ضال. أما السِّدْرُ العُبْرِيُّ فهو ما عَظُمَ أو القديم من السدر، طويلاً ذا ساق ولا شوك فيه، يُنبت على شواطئ الأنهار لذا نُسب إلى العُبر بمعنى الشاطئ. والسدر المخبوذ، هو الذي خُصِدَ شوكه أي نُزِعَ فلا شوك فيه.

والسدر من الأشجار التي يُسْتَنْظَلُ بها في الصحراء، وينتفع الناس بثماره التي تُسَمَّى بالثَّنِيقُ. ولقد نهى الإسلام عن قطع السدر وغيره من الشجر الذي يكون في الفلاة أو الصحراء ويستظل به أبناء السبيل والحيوان. وقديماً كان العرب يُحَصِّنُونَ بيوتهم ويعززون حصونهم بشوك السِّدْر، كما كانوا يتخذون منه أبواباً.

أشجار العيص

قالت العرب: العيصُ هو ما أُلْتَفَّ من أغصان الشجر وكَثُرَ مثل السَّلمِ والطَّحِ والسَّيَالِ والسدر والسَّمْرِ والعوسج والعُرْفُطِ

والعوسج من العضاء (أي من شجر الشوك)، يقصُرُ ساقه، ويصغُرُ ورقه ويصلبُ عوده ولا يعظُمُ شجره، يلتف على نفسه بشكل كثيف، تأكل الجمال شوكه، ولا تأكل إلا الأفرع الغضة أو القريبة منها.

والسَّمْرُ من شجر العضاء، وقد استفاد العرب في الصحراء من السَّمْرِ، حتى قالوا ليس في العضاء شيءٌ أجود خشباً من السَّمْرِ، يُنْقَلُ إلى القُرَى فنُعَمَّى أي تُغَطَّى به البيوت.

والسَّلمُ شجرة ذات شوك، ليس لها خشب وإن عظمت، فهي قصيرة، ولها شوك دُفَاقٌ طویلٌ وحادٌ، يُدْبِعُ بَورِقها وقشرها، ويُسمى ورقها القَرَطُ.